علماء العرب 19

الزهراوي

أبو الجراحة

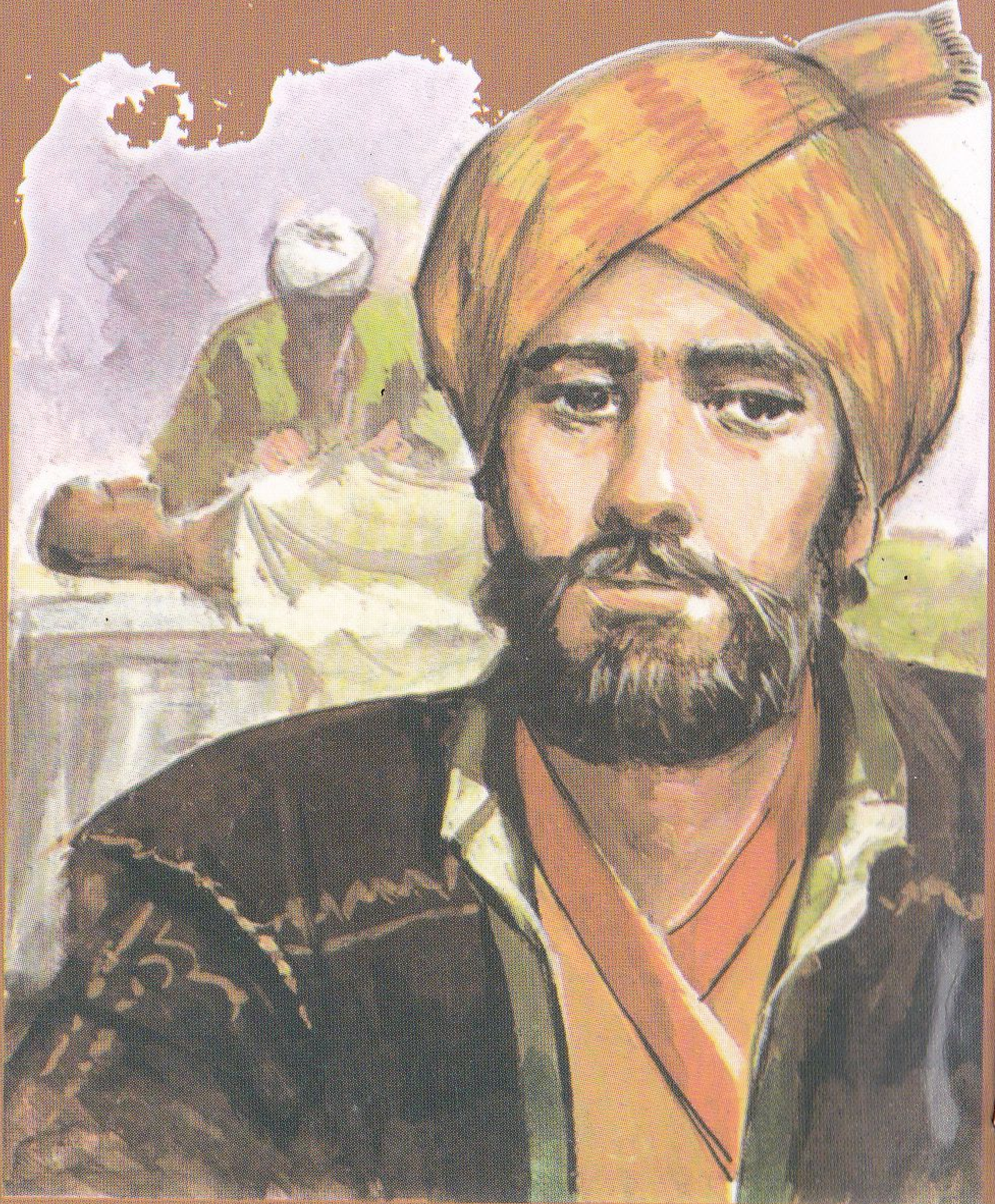

تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

منشورات ANEP

علماء العرب

الزهراوي

أبو الجراحة

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الكتاب: الزهراوي
سلسلة علماء العرب
المؤلف: سليمان فياض
رسوم: اسماعيل دياب
تصميم الغلاف: بديعة ميدات
الناشر: منشورات ANEP

50، شارع خليفة بوخالفة - الجزائر
الهاتف/فاكس: 213 21 23 64 85 / 213 21 23 89 61
الهاتف: 213 21 23 89 16 / 213 21 23 68 32
فاكس: 213 21 23 64 90
e-mail: editionsanep@yahoo.fr

الطبعة الأولى 2007
ISBN : 978-9947-21-336-0
Dépôt légal : 1531-2007

جميع الحقوق محفوظة لمركز الأهرام للترجمة والنشر

نَقّاش من قرطبة

دخَل «عباسُ» النقّاش، على ولِيِّ العَهدِ «الحكَم»، في قصرِه بقُرطُبَة. كانَ معَهُ الطّبيبُ «عيسَى بنُ إسحق»، رئيسُ «بيمارِستَان» (مستشفى) قُرطُبَة، ووَقَفَا ينتَظِرَان، حتّى دعاهُما «الحكَمُ» إليهِ. وقال «عيسَى» لولِيِّ العهدِ:

- هَا هُو، أيُّها الأمير، الرّجُلُ الّذي حدّثْتُك عَنْ مهارَتِه في النّقْشِ والزّخْرفَةِ.

فقال «الحكَمُ» لعباسٍ:

- تَقَدّمْ يا رجُلُ، وأَرنا كفّيْكَ.

وتَقَدَّمَ «عباسُ» خُطوَتَيْنِ، وبسَطَ كفّيْه لِوَليِّ العَهدِ فتَحسَّسَهُما وتأمَّلَهُما، كانَتَا خشِنَتَيْنِ، نافرتَيِ العُروقِ. وكانتْ أصابعُ الكفَّيْنِ مرهفَةً وطويلةً، كأنَّها أصابعُ عازفٍ علَى العُودِ، وابتَسَمَ «الحكَمُ» وقالَ لعِيسَى:

- هكذَا أُريدُ يدَيْ مَنْ سينقُشُ ويُزَخْرِفُ الأبوَابَ، والنّوافذَ، والجُدْرانَ، فِي قَصْرِ «الزّهراءِ».

والتَفَتَ «الحكَمُ» إلى «عباسٍ» قائلاً:

- أحِبُّ مَنْ يعْمَلُ بيدَيْهِ، ولا يعتَمِدُ علَى صِبْيَتِهِ.

فقالَ لهُ «عبّاس»:

- أيُّهَا الأمير، إنّني أضَعُ التّصْميمَ لِمَا سأنْقُشُه وأُزَخرِفُه بِنفسي، وسأَعْرِضُه عليْكَ قَبْلَ تَنفيذِه. ولِي مساعِدِيَّ المُدرَّبين،

الَّذين أعتَمدُ عليهِم في التّنفيذ، تَحتَ إشْرافي المُستمرّ، ثُمَّ أتولّى بنفسِي ختَامَ كلِّ العمَلِ ومُراجَعتِه، والتّأكُّدَ مِن سَلامَتِه، بيديَّ هاتَيْنِ، حتّى لا يَكُونَ فيهِ نَشازٌ. تمامًا، مثْلَ اللّحْنِ الموسيقِيّ.

فَضَحِكَ «الحكَمُ» وقَال:

– حَديثُكَ يا عبّاس حَديثُ مُتذوّقٍ فنّانٍ.

فقال «عيسَى» مَادِحًا «عبّاس»:

– أيُّها الأميرُ، عَباسٌ فنّانٌ حقّا. يرْسمُ الشّكْلَ عَلَى الرُّخامِ، أو الخَشَبِ، أو الجِصِّ (الجبْس) أو الحَجَرِ، ثُمَّ يرُوحُ يَحْفرُ فيه ويُقوِّرُ، ويُغوِّرُ، ويُبرزُ، ويَعْطِفُ (يُميلُ الاستِدارَات)، كأنَّهُ واحدٌ مِنْ هَؤُلاءِ المرَدَةِ النحّاتينَ للتّماثيلِ، في بلادِ اليُونانِ والرُّومان، في سالِفِ (سَابِق) القُرونِ.

فقالَ «الحكَمُ» لِعبّاس:

– سَأقولُ لَكَ، يا عبّاس، كيفَ نُريدُ الزّخارِفَ والنُّقوشَ، في قَصرِ الزّهراءِ، ومَسْجِدِهَا، أُريدُ أنْ تَجمَعَ طرزُها بينَ فُنونِ الزّخرفةِ: البيزَنْطيّةِ، والقُوطيّةِ، والفارسيّةِ، والدِّمشقيّةِ. فَنَحْنُ ورثَةُ كلِّ الحَضاراتِ، وسنُعْطِي ما وَرِثْناه لِمَن يأتي بَعدَنَا.

فقَالَ «عباسٌ» بثِقَةٍ:

– أعرِفُ كلَّ هذهِ الطرزِ جَميعًا أيُّهَا الأميرُ. وقدْ رَأيْتُ بِعَيْنَيَّ طرزَ البِنَاءِ، الَّتي رَسَمَها المُهَندِسُونَ عَلَى الوَرَقِ لضاحِيَةِ قُرطُبَةَ الكُبْرَى: «الزّهْراء»، وستَكونُ رَاضيًا إنْ شاءَ اللّهُ، أيُّها الأميرُ، أنْتَ ووالِدُكَ الخَليفةُ «عبدُ الرّحمنِ النّاصِرِ»، أعزَّه اللّه.

ابنُ الزّهراء

حِينَ عادَ «عبّاسٌ»، ذاتَ ليلةٍ إلى بَيتِه، في موقِعِ العملِ بالزَّهراءِ، سمِعَ صُراخَ وَليدٍ، ورأى الطّبيبَ «عيسَى» جَالسًا. وبالقُرْبِ منْهُ «قابلةٌ» (مولّدةٌ) تغسلُ يديْها، من مَاءِ إبريقٍ نُحاسيٍّ. وأدركَ «عبّاسٌ» أنَّ اللّهَ قَدْ رزَقَهُ بولَيد. ورأتْه أختُهُ، فتَوقّفَتْ عَنْ صبِّ الماءِ منَ الإبريقِ، ووَضعَتْ كفَّها عَلى فَمِها، وأطلَقَتْ زُغْرودَةً مُمتَدّةً وعاليةً. وأشرَقَ وَجْهُ «عبّاسٍ»، واجْتاحَتْهُ فَرْحَةٌ غامرَةٌ، ونَهَضَ الطّبيبُ، وصافَحَ «عبّاس» مُهَنِّئًا، قائلاً لَهُ:

بُورِكَ لَكَ في ابنِكَ يا عبّاسُ، أيُّ اسمٍ ستُسمّيه بِهِ؟

فقالَ لهُ «عباسٌ» برَجاءٍ:

- سَمِّهِ أَنْتَ يا طَبيبَ قُرْطُبَةَ، فَقَدْ وَهَبَهُ اللَّهُ الحَياةَ عَلى يَدَيْكَ.

فَقالَ لَهُ الطَّبيبُ:

- سَأُسمّيه إذَن «خَلَف». خلَفُ بنُ عبّاسٍ. وسيكونُ خيرَ خَلَف، لخيرِ سلَفٍ، إنْ شاءَ اللّه.

وَضَحِكَ الطَّبيبُ وقالَ لأُخْتِ «عبَّاس»:

- أتَعرفينَ. هذا الوليدُ، هُوَ أوّلُ مولُودٍ يُولَدُ، لأحَدِ العامِلين في الزّهْراء.

قَريبًا مِنَ السّحبِ

شَبَّ «خَلَفٌ» ونَما، في بيتٍ مِنْ هَذهِ البُيوتِ المؤقّتة، الّتي أُقيمَتْ لعُمّالِ الزّهراءِ، في سَفْحِ جَبَلٍ أَسْوَد، تَتَغَيَّرُ ألوانُه فِي دَرجَاتِ الضَوْءِ، والظّلال، في اللّيلِ والنّهارِ، وعَبْرَ فُصولِ السِّنين، وكانَ العَمَلُ يَجري في الجبلِ عَلَى قَدَمٍ وسَاقٍ. وكانَ «خلفٌ» يَطيبُ لَهُ أنْ يصعَدَ بَيْنَ أحجارِ الجبَلِ، مِنَ السَّفحِ، إلى القِمَّة، ويَجلسُ هُناكَ، قَريبًا مِنَ السُّحُبِ، يمدُّ بَصرَه في كلِّ الأنْحاءِ.

وحَفِظَ «خَلَفٌ» القُرآنَ الكَريمَ، والأَحاديثَ، وتعلَّمَ القِراءةَ والكِتابَةَ، ومَبادِئَ الرّياضِيّات، وتَعلَّمَ مِهْنَةَ النّقْشِ، حَفْرًا غائرًا وبارِزًا، عَلى أيدي مُساعِدي أبيه، ثُمَّ تَرقَّى لِيَتعلَّمَ أسْرارَ المِهْنَةِ مِن أبيه نَفْسِه، وصَارَ «خَلَفٌ» ماهِرًا في الحِرْفَةِ، مَهارَةَ أَبيه، وزادَ عليه فراحَ يَبْتَكِرُ تَصْميماتٍ جَديدةً للزَّخْرَفَةِ الإسلاميّةِ الأندلُسيّة، ويعرِضُها عَلى أبيهِ، فَيُثْني (يَمدَحُ) عَلَى خَيالِه الواسِعِ، وابتِكاراتِه الجَديدة، لزَخارِفِ الخُطوطِ الهندسِيّةِ، والتّوريقات، وحُسْنِ اختِيارِه للألْوانِ.

وقال «عَبَّاسٌ» يومًا، لابنِه «خَلَفٌ»:

- سَتَرِثُ هذهِ المِهنَةَ يا بُنَيَّ مِن بَعدي، فَعَلَيْكَ فيها بالإخلاصِ، والدِّقّة، قَدْرَ طاقَتِكَ. واخْتَرْ دائمًا مُساعِديك، مِنْ خيرَةِ العُمّالِ، وأعطِهِم أُجورَهُم، في خِتامِ كُلِّ يَوْمٍ، قَبْلَ أنْ يَجِفَّ عَرَقُهُم، عَلى الجِباه، وكُنْ بِجوارِهم في الأحْزانِ والأفْراحِ، تمدُّ لهُم يدَ العَونِ، في كلِّ حالٍ.

طُموحُ خلفٍ

لَكِنَّ «عبّاس» فَاجأَ أَباه ذاتَ يومٍ، وكانَ قدْ بَلَغ العِشْرين مِنَ العُمْرِ قائلاً بهُدوءٍ:

- أبِي. أُريدُ أنْ أتعلّم الطِّبَّ، عَلى يَدِ صَديقِكَ «عيسَى ابنِ إسْحق».

فقالَ لهُ «عبّاس»:

- مَاذَا؟ الطبُّ طَريقُه صَعبٌ يا بُنَيَّ. وخطَؤُه يَعني المَوتَ، أو العاهَةَ. الخَطأُ في نَقْشِ الأَحجارِ أَهْوَنُ كثيرًا يا بُنَيَّ. في النّقْشِ أنت

تَتَعامَلُ مَعَ الجمَاد، لِتُنطِقَ الكُتلةَ بالجمَالِ. لكنْ مع المَريضِ، أنْتَ تَتَعامَلُ مَعَ الحيَاة، مَعَ الجَسَدِ البَشَريّ، المَليءِ بالعُروقِ والأَعْصاب.

وسَكَتَ «عبّاسُ» لحظةً، ثمّ قالَ:

- حَفِظْتَ القُرآنَ يا خَلَفُ، ودرسْتَ منَ الحَديثِ واللُّغةِ والرّياضيّات، ما يُنيرُ عَقلَكَ في مِهنَتِك، وحَياتِكَ، وعلاقَتِكَ بالنّاسِ، وحَسبُكَ هَذا منَ المَعْرِفَة، كَنَقّاشٍ، لقدْ صِرْتَ ماهِرًا في النّقْشِ يا عبّاس، وتكسَبُ مِنَ الرِّزقِ ما يَكْفي حاجَتَكَ، ويَزيدُ علَيْها.

وكانَتْ أمُّ «خَلَف» وأُختُه جالِسَتَيْنِ، تَسْمَعَانِ حِوارَهُما. وقالتِ الأُمُّ لزَوْجِها «عبّاسٍ»:

- فَزِعَ خَلَفٌ، حينَ ماتَتْ جارَتُنا، وهِيَ تَضَعُ وَليدَها وعجَزَت القابِلَةُ عنْ إنقاذِه وإنقاذِها.

فقالَ «عبّاسٌ» لخلفٍ:

- أَلِهَذا السَّبَب، تُفكّرُ أنْ تكونَ طَبيبًا؟ أتظُنّ أنّكَ لَوْ صِرْتَ طَبيبًا ستُنْقِذُ الجَنينَ وأُمَّهُ؟ الأطِبّاءُ يا بُنَيّ يتركُونَ ذَلِكَ للقابلات، مثلَما يتركُونَ الجِراحاتِ للحجّامينَ (الحلاّقين)!!

فقال «خَلَفٌ» بِعزمٍ أقْلقَ أبَاهُ:

- ذَلِكَ هُوَ خَطَؤُهُم يا أبي. حينَ أصيرُ طَبيبًا، سأفعَلُ بيدَيْ النقَّاش هاتَيْنِ، مَا يهرَبُ الأطبّاءُ من فعْلِه، ومَا يتركُونَه للقَابلات، والحَجّامينَ. لَمْ أترَفّع عَلَى الحَجَرِ، فَكيْفَ أترفّعُ عَلَى أجسادِ النّاسِ، وحَياةِ النّاسِ. الدّينُ يا أبي طبُّ الأرْواحِ، والطّبُّ يا أبي حَياةُ الأبْدانِ. أمّا النّقْشُ، فَلا يَزيدُ عَن كَونه زينةً للجُدرَانِ.

وَجِمَ «عبّاس»، حينَ سَمِعَ رَأْيَ ولدِه في النّقْشِ، لكنَّه، في ذاتِ اللّحظةِ، فَرِحَ لِطُمُوحِ وَلَدِه، وعُلُوّ همّتِه، وقال:

- غدًا، سَأصحَبُكَ لِلقاءِ عيسَى بنِ إسحق. مَهَرْتَ في النّقْشِ، لكنَّكَ لَمْ تُحبَّهُ بَعْدُ، وأرجُو أن تمهرَ في الطبِّ، بقدرِ حبِّكَ لَهُ الآنَ.

انظر واسْمَعْ أوّلاً

فَرِحَ «عيسَى» بِقُدومِ «خَلَفٍ» إليه، ليدرُسَ الطّبَّ عَلى يديْه. وقدّمَهُ إلى تِلميذِهِ، الطّبيبِ الشّابِ «أحمدُ ابنِ حسدَاي». وقالَ لِخَلفٍ:

- اذهبْ أوّلاً مَعَ «أحْمد»، وتجوَّلْ مَعَهُ في البيمَارِسْتَان، بَيْنَ المَرضَى، والأسرَّة، ومَكتَبَةِ البيمَارِسْتَان، وصيدَليّتِها، وقاعَةَ الجِراحَاتِ الّتي تَسيلُ فيها الدّماءُ، تَحتَ «مَباضعِ» (مَشارِطِ) الحَجّامينَ. ثُمَّ عُدْ إليَّ، فَقدْ تَعْدلُ عَنْ رَغبَتِكَ في تَعَلُّمِ الطّبِّ، بَعد أنْ تَرَى مَا يُروّعُكَ (يُخيفُكَ)، وتَسمَعَ أنينَ المُتَألّمينَ.

وصَحِبَهُ «أحمدُ»، وتَجَوَّلَ وإيّاهُ في البيمارستانِ، جَناحًا جَناحًا، وقاعةً قاعةً. ورَأى «خلفٌ» أجنحةً للرّجالِ، وأجنحَةً للنّساءِ، وقاعاتٍ شَتّى، لأنْواعِ الأمراضِ، والتّجهيزِ، والحَوادثِ العارِضَةِ، والاسْتقْبَالِ. ورَأى صَيدليَةَ البيمارستانِ، وبهَا أدْويَةٌ وعَقاقيرُ، وقَواريرُ. ورَأى مكتبةً ضَخمةً تَضُمُّ مَخطوطاتِ كِبارِ الأطبّاءِ، من شَرقِ العالَمِ الإسلاميّ إلى غَربِه، وبينَها نسَخٌ من كُتُبِ الطّبيبيْنِ: أبقْرَاط، وجَالينوس.

ورَأى أقْسامَ المَجانين، والمَجذومينَ، وعَجِبَ حينَ سَمِعَ بالقُرْبِ منْهم، أصواتَ عَزْفٍ جميلٍ، يتدفّقُ إليهم منْ فِناءِ البيمارسْتانِ، عَبْرَ النّوافذِ والأبْوابِ.

ودَخَلَ «خلَفُ» مَعَ «أحْمَدَ» غرفَةَ الجراحات، ورَأى بهَا «خلَفٌ» منْضَدَةَ عمليات خَشبيّة، مَفروشةً بمَرْتبة وملاءَةٍ بَيضاءَ، وبجانبِها منْضَدَةٌ صَغيرةٌ، علَيْها قطَعٌ منَ الإسْفَنْج، ودَوارقُ سَوائلَ مُلوّنة، وأدواتُ جراحةٍ قليلةُ العَدَدِ، بَعضُها مَصنوعٌ منَ الذّهَبِ، وبَعضُها مَصنوعٌ منَ الفضّة. وكانَتْ جُدْرانُ الغُرفَة مَطليّةً بالجِصِّ الأبْيَضِ، وعاريةَ الجُدْران. وبها نوافذُ زُجاجيّةٌ، ساطِعَةُ الضَّوء، تُطِلُّ عَلى الفِناء، ومِن سَقْفها تَتدلّى مِشْكاةٌ زيتيّةٌ، ذاتُ سَلاسِلَ، تَنْحَدرُ مِن بَكرَة، وتُرفَعُ وتُخفَضُ، حَسَبَ الحاجَةِ، فَيسْطَعُ ضَوْؤُها فَوْقَ مِنْضَدةِ الجِراحَة.

وعادَ بِهِ «أحمد»، إلى حَيْثُ يَجلِسُ الطّبيبُ «عيسَى ابنُ إسْحَق».

الصبْرُ.... والخَيالُ

رآهُ «عيسَى» مُضْطَرِبًا ممّا رآه، فقالَ لهُ:

-أزْعَجكَ ما رأيْتَه يا خَلَف، سَمِعْتَ أنينَ المَرْضَى بأُذُنَيْك، ورأَيْتَ مَا علَيهِم مِن ضِمادات، بِهَا آثارُ دِماءٍ.

فقالَ لهُ «خَلَف»:

- لمْ يُخِفْني ما رأيتُه يا سيّدي الطّبيبُ، زَادَني مَا رأيْتُه عزْمًا على أنْ أكُونَ طَبيبًا، يُخَفّفُ آلامَ المَرْضَى، ويُداوي الجِراحَ.

فابْتَسَمَ «عيسَى» وقالَ لهُ:

- الحَمدُ للّه، ولَسَوْفَ يُفيدُكَ، في صَنْعَةِ الطّبِّ، ما تَعلَّمْتَه كَنَقّاش، مِنْ صَبْرٍ ودقّةٍ وخَيالٍ، فالصَّبْرُ والدّقّةُ هُمَا عُدّةُ الطّبيبِ في مِهْنَته، والخَيالُ وَسيلَةُ العَقْلِ لابتكارِ الجَديدِ في مِهْنَةِ الطّبِّ، الذي لَمْ يَقُل به ولمْ يَصِلْ إلى مَعرِفَتِه، مَنْ قَبْلهِ مِنَ الأطبّاءِ.

المعرفةُ والأخلاقُ

وطَوالَ سَنَوات، عَرَفَ «خلفٌ» مِنَ أطبّاءِ بيمارستانِ قُرْطُبَة، الكَثيرَ مِنَ المَعارِفِ الطِّبّيّةِ والكيماويّة، عَنِ الأعشابِ وآثارِها في الشّفاء، وعَنِ الأدويَةِ المُفْرَدَةِ والمُركّبَة، والمُتَّخَذَةِ مِنَ النّبات، والمَعادِنِ، والأحْجارِ، وأجْزاءِ الحَيَوانِ؛ وعرَفَ الكَثيرَ عَن طِبِّ «جالينوس»، و«أبُقراط»، و«ديسقوريدَس»، و«ابن سينَا»،

و«الرّازي»، وعرَفَ كَيْفَ ومَتَى يجرّبُ الدَّواءَ في الحَيوانِ، قَبلَ استِخدامِهِ في عِلاجِ الإنسانِ.

ووعَى «خَلَفُ» في البيمارستانِ تَقاليدَ مِهْنَةِ الطّبِّ، مِنْ حسْنِ المَلْبَسِ، إلى طيبِ الرّائحةِ، إلى نَظافَةِ البَدَنِ والثَّوْبِ، مِنْ كِتْمانِ أسرارِ المَرْضَى، فلا يَبُوحُ بشيءٍ عَنْها لأحَدٍ، ولا يُفشي لَهُم هَذيانًا قالُوه تحتَ التّخديرِ، ووَعَى أنْ تَكُونَ رَغْبَتُهُ في إبْراءِ المَرضَى أكْثَرَ مِن رَغْبَتِه في أجْرِه كَطبيبٍ، وأنْ يُسَوِّيَ في عِلاجِه بينَ الصَّديقِ والعَدُوِّ، ويَرغَبَ في عِلاجِ الفُقَراءِ أكْثَرَ ممّا يَرغَبُ في عِلاجِ الأغنياءِ، ووعَى أنْ يَكونَ عَفيفَ النّظَرِ، في منازلِ المَرضَى، مَأمونًا على الأرْواحِ، فَلاَ يَصِفُ دَواءً قَتّالاً، ولا يعْمَلُه، ولا يَصِفُ دَواءً للنّساءِ يُسْقِطُ الأجِنّةَ، ولا للرّجالِ يَقْطَعُ النَّسْلَ، ويجتهِدُ قَدْرَ وُسْعِه وطاقَتِه، في معرفَةِ المَريضِ، ومَرَضِه، وعَمَلِه، قَبْلَ أنْ يَكتُبَ الدّواءَ، ويُحدِّدَ نِظامَ الطّعامِ، وأنْ يُقدِّمَ تَشخيصَهُ لمَرضِ كُلِّ مَريضٍ إلى كَبيرِ الأطبّاءِ، ويُطلِعَ عليه زُمَلاءَهُ مِنَ الأطبّاءِ، وأنْ تَكونَ لديه كلُّ آلاتِ الطّبِّ كاملةً، حاضِرَةً بينَ يَدَيْه، في بَيتِه، مِثْلَمَا في البيمارِسْتانِ.

وحَمِدَ «خَلَفُ» اللّه، لأنَّ اللّه قَدْ خَلَقَه عَلى هَيئَةٍ يَتَحتّمُ أنْ تَكُونَ في طَبيبٍ، مِنْ تَمامِ الخَلْقِ والتّكوينِ، وصِحّةِ الأعْضاءِ، وقُوّةِ الذّاكِرَةِ، وحُسْنِ الإدْراكِ، وهُدوءِ الأعْصابِ.

قَسَمُ أبُقْراط

وأُتيحَتِ الفُرْصَةُ أخيرًا لِخَلفَ، ليقرنَ العِلْمَ بالعَمَلِ، فَمارَسَ التّشخيصَ والعِلاجَ معَ أطِبّاءِ البيمارستانِ، وصارَ فيهما ماهِرًا، وبالدّواءِ خَبيرًا، وحَريصًا على التَدرُّجِ في العِلاجِ، مِنَ الغِذاءِ، إلى الأدوِيَةِ المُفردَةِ، إلى الأدوِيَةِ المُركّبَةِ.

وحانَ الوقتُ لِمَنْحِ «خلَفٍ» إجازَةَ المُمارسَةِ للطّبِّ، في مَجلِسٍ حَاشِدٍ، كانَ علَى رَأسِه «المحْتَسِب» (المَسئول عَنْ جَوْدَةِ الإنتاجِ وتَنفيذِ القَوانينَ الآن) وردَّدَ «خلَف» وَراءَ «المُحْتَسِب» قَسَمَ «أبقْراط»: «برِئْتُ مِنْ قَابِضِ أنْفُسِ الحُكَماءِ.. إن خَبّأْتُ نُصحًا، أو بَذَلْتُ ضُرًّا، أو قَدّمتُ مَا يقِلُّ عَمَلُه، إذا عرّفتُ ما يعظُم نفْعُه.. واللّهُ شاهِدٌ عَليَّ».

حفلٌ في القصر

وكَانَ «خلَف» قَدْ بلَغَ منَ العُمرِ خَمسًا وعِشرينَ سنةً، حينَ ودّعَ الخليفةُ «عبدُ الرّحمنِ النّاصِر» الدُّنيا لأهلِهَا. وتولّى حُكْمَ الأندلُسِ مِنْ بَعدِه الخَليفةُ «الحَكَمُ المُستَنصِرُ الثّاني»، فَورثَ دَولةً قَويّةَ الأركانِ، مُوحّدَةَ المُدُنِ والقُرَى، وخِلافةً أُقيمَتْ لأوّلِ مَرّةٍ في الأندلُسِ علَى يَدِ أبيه «عبدِ الرَّحمنِ»، خلافةً قُمِعَتْ في ظلّها ثَوراتُ الثّائرينَ الدّاخليّة، وهَزَمَتْ أُمراءَ الشّمالِ منَ الفرنْجَةِ في: نافار، وقَشْتالَة، ولِيُون، بَلْ وصارُوا يَلْجأونَ إلى قُرطُبَةَ لتَحكيمِ خَليفتها فيمَا يَنْشَبُ بَيْنَهُم من صِراعاتٍ وخِلافاتٍ، وصارَتْ مَدائِنُ الشّمالِ وقُراهُ آمنةً في الأندلُسِ، مِثْلَ مَدائنِ الجَنوبِ الأندلُسِيّ وقُراه.

وبَايَعَ «خَلَفٌ» مَعَ المُبايِعينَ للحَكَمِ بالخِلافَةِ بعدَ أبيهِ، وشَهِدَ في قَصْرِ الخِلافَةِ بقُرطُبَةَ، الحَفلَ الّذي أُقيمَ لعِيسَى ابنِ إسحق، بمناسبةِ تَعيينه **طَبيبًا للخَليفَة**، ووَزيرًا للصّحّةِ **بَيْنَ وُزرائه، إلى** جانِبِ كَوْنِه رَئيسًا للبيمارستانِ.

وفي هذا الحَفلِ، أعلَنَ «الحكمُ» عَزْمَهُ علَى جَعْلِ الأندلُسِ في عَهدِه منارةً للعُلومِ وللمَعارفِ، وللآدابِ والفُنونِ، وقالَ لوزيرِه عيسَى:

- أُريدُ أنْ تَجِدَ لَنَا نِظامًا يُراقِبُ بِه المُحتَسِبَ باعَةَ الأدويَةِ مِنَ العَطّارينَ، الّتي يَبيعونَها للنّاسِ، ويُراقِبَ غِشَّ الأدويَةِ في أيِّ مَكان.

وَنَظَرَ «عيسَى» إلى «خَلَفٍ»، فَأشارَ لهُ برأسِه مُوافِقًا، وقالَ هامِسًا:

- سَنَجِدُ حَلاًّ لذلِكَ يا سَيّدي الوَزير.

لِكلِّ مُشكلةٍ حلّ

باتَ «خَلَفُ» لَيلَتَه تِلْكَ ساهرًا يُفكّرُ، يَستَعرِضُ جَوانِبَ المُشكلَةِ التي أثارَهَا الخَليفَةُ الجَديدُ، ويَبحَثُ لَهَا بذكائِه وخَيالِه، عَنِ الحُلولِ.

وعِندَ الظُّهرِ، في اليَومِ التّالي، جَلَسَ «خَلَفٌ» إلى الوَزيرِ «عيسَى»، وقالَ لَهُ:

- أرَى يا سيّدي الوَزير، أنْ نُلصِقَ أوراقًا مكتُوبَةً علَى زُجاجَاتِ الدّواءِ بِها أسماءُ الأدْوِيَةِ والعَقاقيرِ.

فقالَ لَهُ «عيسَى»:

- وماذَا عَن أقْراصِ الدّواءِ؟

فقالَ لهُ «خَلَف»:

- نَطبَعُ أسْماءَ الأدويَةِ بالنّقْشِ على أقْراصِ الدّواءِ، ونَنقُشَ الأسْماءَ مَقلوبَةً عَلى قوالِبَ من العَاجِ أو الأبْنُوسِ، ونَطبَعُ بها عَلى الأقْراصِ، مِثْلَما نَفعَلُ مَعَ الأخْتامِ، وبذَلِكَ لا تختَلِطُ الأقراصُ بعضُها ببعضٍ، في الصّيدلِيّةِ، أَو عندَ المَريضِ أَو عِنْدَ العطّارِ.

فقالَ «عيسَى»:

- وماذا نفعَلُ معَ العطّارينَ يا خَلَف، ومعَ القائِمينَ عَلى الصّيْدليّةِ، الّذينَ يغشّونَ الدّواءَ؟

فقال «خَلَف»:

- نُحددّ لَهُمْ أوّلاً مَقاديرَ ونِسَبِ الدّواءِ، في كلِّ دَواءٍ، ونُلزِمُهُم بِها بوسَاطَةِ المُحتَسِبِ، ونُدرِّبَ لهُ رِجالاً مِن رِجالِه، عَلى ذَلِكَ العَمَلِ، ونُلزِمُ العَطّارينَ بعدمِ إفشاءِ أسرارِ الدّواءِ لأحَدٍ، إلاّ عَن طَريقِ طَبيبٍ، ويُجرِّدُهم المُحتَسِبُ مِنْ حَقِّ مُمارسَةِ المِهنَةِ، إذا غَشُّوا في تَركيبِ الدّواءِ.

فقالَ عِيسَى:

– أحسَنْتَ الرَّأيَ يا بُنَيَّ، وأصبْتَ. وغدًا أجلسُ مَعَ المُحتَسِبِ، لنضعَ نظامًا دقيقًا لذلِكَ كلِّه، يُطَبَّقُ في كلِّ أرجاءِ الأندلُسِ.

طَبيبٌ رَقيقُ القَلبِ

صمت «عيسَى» برهةً، ثمَّ قالَ:

– أتعرِفُ يا خلَف، لقَد تَمَنَّيْتُكَ لمهنَةِ الطِّبِّ، عِندَما لمسْتُ ذكاءَكَ، ورأَيْتُ صَبْرَكَ ومَهارَتَكَ، وأنْتَ تَعمَلُ مَعَ أبيكَ نَقّاشًا في مَباني الزّهراء.

وابتَسَمَ خَلَفٌ، وقالَ:

– عِنْدي أُمنيةٌ لمرضَانا يا سيِّدي الوَزير، لَو عرضتُها على الخَليفَةِ، سيُجيبُكَ إليها.

ونَظَرَ «عيسَى» إلى «خَلَف»، مُنتَظِرًا مَا سوفَ يَقولُه، فقالَ:

– نجعَلُ غِذاءَ المَرضَى لَحمًا ودَجاجًا وضأْنًا. فالغذاءُ يرفَعُ مِنْ مُقاومةِ الجِسْمِ للمرضِ، ويُعجِّلُ بالشِّفاءِ. ونُجدِّدُ لهُمُ الأثاثَ

والفِراشَ، ونُلْبِسُهم ثِيابًا نَظيفَةً. وحينَ يخرُجُ المَريضُ مِنَ المُسْتَشْفَى، نُعطيهِ ثَوبًا، ونُقودًا يَستَعينُ بِها، إلَى أنْ يَعودَ إلى سابِقِ عافيَتِهِ، وعمَلِه، قَبْلَ مَرَضِهِ، ونجعَلَ دواءَ الطّبيبِ لمريضِهِ في ورقَتَيْنِ، ورقةٍ تُعْطى للمَريضِ، وورقةٍ تُعطَى لأهلِهِ، ليذَكِّرُوه بدوائِهِ في مَوعِدِهِ إذَا نَسِيَ، ويعدّوا لَهُ غذاءَه المحدَّدَ لَه، إذا قَصَّرَ فيهِ.

فقالَ «عيسى» وهو يرنُو بإعْجابٍ إلى «خلَف»:

– مَاذَا أيضًا أيُّها الطّبيبُ الرّقيقُ القَلْبِ، المُرْهَفُ المَشاعِرِ؟

فقالَ «خَلَف»:

– نجعَلُ لكلِّ مَ❋نونٍ خادمَيْنِ، يتناوَبانِ علَى خدمَتِه، يَنزِعانِ عَنْهُ ثيابَهُ كلَّ صَباحٍ، ويحمِّمَانه بالماءِ البارِدِ، ويُلبِسانه ثيابًا نَظيفَةً، ويُفَسِّحَانِهِ في الهَواءِ الطّلْقِ، ويُجلِسانه بينَ العازِفينَ للموسيقَى.

فَصاحَ «عيسَى»:

– جَميلٌ مَا تَقولُه يا خَلَف. لكنْ. ألَيْسَ ذَلِكَ كَثيرًا علَى بَيْتِ المالِ؟

فقالَ «خَلَف»:

– لكنَّه ليسَ كَثيرًا علَى أغنياءِ الأندلُسِ يا سَيِّدي الوَزير. نَفْعَلُ مِثْلَما يَفعَلُ أهلُ المَشرِقِ، معَ مَساجِدِهِم وبيمارستاناتِهم. ندعُو إلى تَخْصيصِ الأغنياءِ أوْقافًا مِن أموالِهِمْ، وعوائِدِ أراضيهِم وعقاراتِهم، لصالحِ المَرضَى في البيمارستانات، في مَدائِنِ الأندلُسِ.

وأذِنَ الخَليفةُ «الحَكَم» لعيسَى بدعْوةِ النّاسِ، كَيْ يُوقِفُوا أراضِيَ وأمْوالاً، تَعودُ أرْباحُهَا إلى البيمارستَانات.

مَدَنيّةُ موسيقارٍ

تزوّجَ «خَلَف» وصارَ لهُ ابنٌ، نَذَرَهُ حينَ يكبُرُ لدراسةِ الطّبِّ، كَيْ يَملأَ فراغَه مِن بَعدِه، في تَخفيفِ آلامِ المَرضَى. وصارَ «خَلَف» يجِدُ وَقتًا، يَقرَأُ فيه كِتابَ «الأغانِي» للأصفهاني، وكانَ «الحَكَمُ» قَد بعثَ من اشترَى لهُ نُسخَةً منهُ منَ المَشرِقِ، دفَعَ ثَمنًا لَها ألْفَ دينارٍ ذهبيّ، ونَسَخَ نُسخًا منَ الكِتابِ، تُعارُ للقارئينَ في مكتبةِ القَصرِ بقُرطُبَة.

وكانَ «زِرْياب» موسيقارُ المَشرِق، الأسودُ اللَّوْن، قَد وَفَدَ عَلَى الأندلُسِ، فَهزَّ أرجاءَها بعزْفِه، وفَتَياتِه المُغَنِّيات، وبما ابتَكَرَه مِن وَسائِلِ المَدَنيّةِ للنّاس، وصارَ «خلَفٌ» يجِدُ وَقْتًا، يَذهَبُ فيه إلى حَفَلات «زِرْياب»، في سَاحَةِ قَصْرِ الخِلافَةِ، ويَصْحَبُ معَه زَوجَتَه وابنَه وأُختَه وأمَّه وأبيه، ويجلسُ معَ ابنِه وأبيه، في مَجلسِ «الحكَم» مَعَ الوُزَراءِ والأُدباءِ والعُلَماء، وتَجلسُ زَوجَتُه وأمُّه وأُختُه معَ نِساءِ القَصْرِ وَراءَ أرْوِقَةٍ وعقود مَسْدولةِ الأسْتارِ. وتَعلَّمَتْ زَوجَتُه وخادِماتُ بَيْتِه، منْ فَتَيات «زِرْياب»، ما تَعلَّمَتْهُ نِساءُ الأندلُسِ، منْ قَصٍّ لشُعُورِهِنَّ فَوْقَ الحَواجِبِ عَلَى الجِباه، وكيفَ يأكُلْنَ بملاعِقٍ وشَوْكَاتٍ خَشَبيّةٍ مَجْلوبَةٍ مِن لبنانَ، وكَيْفَ يَشرَبْنَ مِنْ أوانِي الخزَفِ، المثلَّجةِ في الهَواءِ الطّلْق، في اللّيْلِ البارِد، والمُعطَّرَةِ بقَطَراتٍ من مَاءِ الوَرْد، وكيفَ يَجلِسْنَ علَى مقاعِدَ، إلى مناضِدِ الطَّعام، الّتي بُسِطَتْ فَوْقَها المفارِشُ البَيْضاءُ. وعلَّمَهُنَّ «خلَف» أنْ يُطِلْنَ المَضغَ للطّعام، وأنْ يَتوقَّفْنَ عَنِ الكَلامِ أثْناءَ الأكْل، حتَّى يَسْهُلَ هَضْمُهُنَّ لَهُ، فلِكُلِّ عمَلٍ وَقتُهُ الخاصُّ، مِثلَما هُوَ عندَ «زِرْياب»، وفَتَيَاتِ «زِرْيابٍ».

الجَسَدُ ليْسَ رخاماً

وفوجِئَ «عيسى»، ذاتَ نَهارٍ، بِدُخولِ «خلَف» عليهِ، قائلاً لهُ في اضطِرابٍ:

– أحوالُ المَرضَى مِنَ المُصابينَ بالأورامِ يا سَيّدِي الوَزيرُ، تُؤرّقُ لَيلي.

فقالَ لهُ «عيسى»:

– ولِمَ أيُّها الطّبيبُ؛ الحَجّامونَ يشقّونَها، ويُداوُونَها باللّبْخَاتِ، والكَيِّ بالنّارِ.

فقالَ لهُ «خلَف»:

– ذَلكَ يا سيّدي الوزيرُ، هُو ما يُزْعِجُني. فَالحَجّامونَ لا يَعرِفونَ التَّشريحَ، وجِراحَاتُهم مَحدودةٌ بسطْحِ الجَسَدِ، حتَّى لا يَقْطَعُوا عصَبًا، أو عِرقًا، وهُمْ لا يَفْتَحونَ صَدرًا ولا بَطنًا. وأدَواتُ الجِراحَةِ مِن ذهبٍ وفِضّةٍ، لا يَحْسُنُ بِها القَطْعُ والشَّقُّ، وتَبْرُدُ حَرارَتُها بسُرعة.

فقالَ لهُ «عيسَى»:

– وتُريدُ أنْتَ أنْ تُمارِسَ الجِراحَةَ بِيَدِكَ، وتَفْعَلَ ما يَأنَفُ كلُّ الأطبّاءِ مِنْ فِعْلِه.

فقالَ لهُ «خَلَف»:

– نَعَمْ. وأُريدُ أنْ يُمارِسَ أطبّاءٌ سِوايَ الجِراحَةَ بأيديهِمْ، إذا قَبِلُوا ذلِكَ. ويَتَحمَّلُ الطّبيبُ المَسؤوليّةَ أمامَكَ إذَا أخْطَأَ تَنفيذَ الجِراحةِ، والإعدادَ لَها، أمّا الآجالُ (الأعمارُ) فَهِيَ بيدِ اللّهِ وحدَهُ.

فقالَ لهُ «عيسَى»:

– وأدواتُ الجِراحَةِ يا خلَف قليلةُ العَدَدِ، لاَ تَصلُحُ إلاّ لسُطوحِ الجَسَدِ. فَهِيَ مِنْ ذَهَبٍ وفِضةٍ، ولا تَروقَ لَكَ.

فقالَ لهُ «خَلَف»:

– نَعَم يَا سيّدي.

فقالَ لهُ «عيسَى»:

– إذا وَجَدْتَ أوّلاً آلاتِ جِراحَةٍ مُناسِبَةً، ومِن معدنٍ لا يَصدَأُ، مِثْلَما لاَ يَصْدَأُ الذّهَبُ والفِضّةُ. أذِنتُ لَكَ بِمَا تَطْلُبُه مِنّي، بَعْدَ أنْ

يُجيزَ مَجلِسُ الأطبّاءِ في البيمارستانِ، ما تَطلُبُه منّا. فَجَسَدُ الإنسانِ حَيٌّ، وليسَ رُخامًا ولاَ خَشَبًا ولا حَجَرًا، ولأَنْ نَتْرُكَ مَرَضَ المَريضِ للّهِ، خَيرٌ مِنْ أنْ نَجرُؤَ عليهِ، ونُخطِئَ في عِلاجِهِ.

آلاتُ الجِراحَةِ

وقَضَى «خَلفٌ» شُهورًا، ولَيالِيَ، ساهِرًا، تَحتَ قِنْديلٍ مُضاء، يَدرُسُ مِن جَديدٍ كلَّ مَا يَتَّصِلُ بالجِراحَةِ، والأحوالِ الَّتي تَحتاجُ فيها الأمراضُ للجِراحاتِ، وطُرُقِ إجْرائِها، في ضَوءِ ما يَعرِفُه مِن مَعارِفِ التَّشريحِ، وجُغرافيةِ العُروقِ والأعْصابِ والأعضاءِ في الجَسَدِ البَشَرِيِّ، ويقدِّرُ لَها أشْكالَ الآلاتِ الجِراحيّةِ، اللاّزِمةِ في كلِّ جِراحةٍ، والمعدنِ الَّذي تُتَّخَذُ مِنْه هذِه الآلاتِ، وتِلْكَ الأدواتِ.

وهداهُ عَقلُه الفذُّ، وعَزْمُه القَوِيُّ، إلى مَعْدِنِ الحَديدِ، المَطلِيِّ، والَّذي ينبغي حِفْظُهُ، في القُطْنِ، مِنَ الرُّطوبةِ والهَواءِ، وجلَس إلى أوراقٍ بَيْضاءَ، مَبْسوطةٍ تحتَ عَينَيْه، وراحَ يَرْسِمُ بالمِسطَرَةِ، والمُثَلَّثِ، والفِرجارِ، الآلاتِ الجِراحيّةِ الَّتي يَتخَيَّلُها لِكُلِّ جِراحةٍ، ويُحدِّدُ لَها طولَها، وسُمْكَها، ووَظيفَتَها الجِراحيّةَ.

صورة عمرها ألف عام لبعض آلات الجراحة التى ابتكرها الزهراوى لأول مرة .

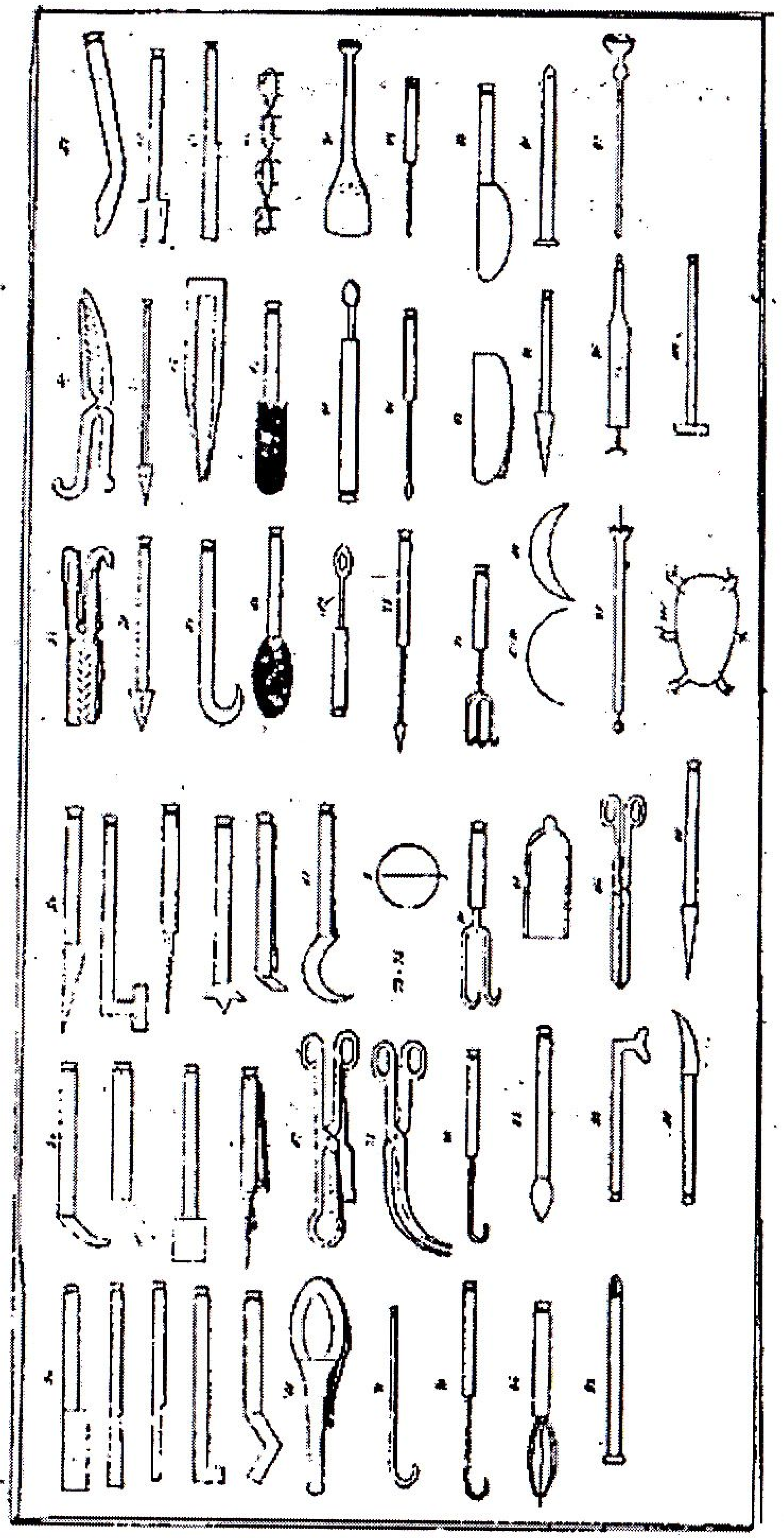

وذاتَ صَباحٍ، حملَ «خلَفُ» رُسومَه لآلاتِه، وذهَبَ بِها إلى حدّادٍ ماهرٍ، في قُرْطُبَة، وكانَ حدّادًا فطنًا (ذكيًا)، ففهِمَ غايَةَ خلَف، وحَدَّدَ لَهُ «خلَف» تكوينَ كُلِّ آلةٍ، وشفْرَتَها (حدّها القاطعِ)، ودرجةَ مَلاستِها (نُعومتِها)، وبَدأَ الحدّادُ في صُنْعِ آلاتٍ للجراحَةِ مِنَ الحَديدِ، آلاتٍ جاوزَتْ عدّتُها (عَدَدُها) المائَتَيْن، لاَ عهْدَ لأحدٍ بِها مِن قَبْلُ، في كلّ أَرجاءِ الأرضِ. وظلَّ «خَلَف» جالسًا إلى جانبِه، يُتابِعه، ويُعينُه ويُساعدُه. ويُبدِي مُلاحَظاتِه لَهُ.

وحَمَلَ «خلَف» أَدَواتِه، بِحِرْصٍ، في صُندوقٍ، في لَفَّةٍ مِنَ القُطْنِ النّاصعِ البَياضِ، وذهَبَ بِها إلى أُستاذِه «عيسَى»، ومجلسِ الأطبّاءِ، ذاتَ صباحٍ.

معَكَ دَعواتُ المرضَى

استَمَعَ «عيسَى» والأطبّاءُ في انْبهارٍ، إلى مُحاضرَةِ «خلَف»، عَن آلاتِه الجِراحيّةِ، طَوالَ النّهارِ، وشَغَلَهُ شَرْحُه، وعرضُه لآلاتِه، عَن دُخولِ «الحكَم» بنفْسِه، إلى مَجلسِ الأطبّاءِ، وجُلوسه جانبًا، في مَكانٍ غيرِ ملحوظٍ بآخرِ المَجلسِ، معَ عشَراتِ الأطبّاءِ.

وحينَ فرَغَ «خلَف» مِن مُحاضَراته، فُوجِئَ بتَصفيقِ الأطبّاءِ لَهُ، وتَزاحُمِهِم حَولَهُ، مُصافِحين إيّاهُ، ومُهَنّئينَ لَهُ، بإبداعاتِه الجِراحيّةِ. وحينَ هَدَأُوا، دُهِشُوا، وهُمْ يرَوْنَ الخَليفَةَ «الحكَم» يَتَقَدَّمُ مِن «خلَف» ويُعانقُه، ويُقبِّلُه بينَ عَيْنَيْه، يَقولُ لَهُ:

- أرجُو أنْ تَتفنَّنَ في جِراحَاتِكَ، مثلَما تَفنَّنْتَ في عمَلِ هَذهِ الآلاتِ، وأَنْ تنتَهي على يَدَيْكَ صَفْحَةُ مُمارسَةِ الحَجّامين للجِراحَةِ، ومعَكَ يا بُنَيَّ دَعواتُ كُلِّ مَريضٍ يُشْفَى علَى يَدَيْكَ.

أبُو الجِراحة

وبَدَأَ «خلَف» يُمارِسُ عمَلَهُ كأوّلِ طَبيبٍ جرّاحٍ، عرَفَتْهُ الدُّنيا، يُعاوِنُه أطبّاءُ مُساعِدونَ، يَعرِفونَ كَيْفَ يُمدّونَهُ بآلاتِ الجِراحَةِ، وكيفَ يُساعِدونَهُ في تَنفيذِ الجِراحة آلةً بعدَ آلة، ويُجَفِّفُونَ لَهُ عرقَهُ، ويتَعَلَّمونَ منهُ مَهاراتِ يديْه مِنْ بَتْرٍ، وشَقٍّ، وفَصْدٍ، وسَلْخٍ، وكَشْطٍ، وحَقْنٍ. ويَجْعَلونَ لهُ المكاوي المُتَعَدِّدَةَ الأنواعِ، في اللَّحظَةِ المَطلوبةِ، علَى الدَّرجَةِ الَّتي لا يَنْصَهِرُ فيها الحَديد (أَلغَى استخدامَ الكَيِّ في عَصرِنا الحَديثِ).

وشُفِيَ علَى يدَيْ «خلَف» كثيرٌ منَ المرْضَى، وتدرَّبَ أطبّاءٌ جرّاحونَ علَى يديْه، منْ كُلِّ بيمارستانات الأندلُسِ، وشاركُوهُ في عمَلياتِه الجِراحيّةِ، وأساليبِها، في جِراحاتِ الشّرايينِ، واستِخراجِ الحصَى، والعيُونِ، والأُذُنِ، والأنْفِ، والحنْجُرَةِ، والصّدْرِ، والبطْنِ، والقصَبةِ الهوائيّةِ، والسُّرّةِ، والأوْرامِ، والعُقدِ اللّيمفاويّةِ، والمجاري البوْليّةِ والتّناسُليّةِ، والولادات العَسِرَةِ، وفي عِلاجِ القُروحِ، وإيقافِ النّزيفِ، والاستِسْقاءاتِ، وفي طُرُقِ استخدامِ خُيوطِ الجِراحةِ، وكمّياتِ التّخديرِ، ومَداها. فَلَهُ في هذا كلّه اكتِشافاتٌ جِراحيّةٌ، وعِلاجيّةٌ، لمْ يَسْبِقْهُ إليها أحدٌ.

وطارَ صيتُ (سُمْعَةُ) «خلَف» علَى ألْسِنَةِ الأطبّاءِ، والمرْضى، والعُلَماءِ، والأُدَباءِ، والتّجّارِ، والرّحّالة، في أرجاءِ العالَمِ الإسلاميّ. ووصلَتْ أخْبارُ نُبوغِه وابتِكاراته إلى أطبّاءِ أوربا، شرْقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، فتَوافَدوا مثْلَ الأطبّاءِ المُسْلِمينَ، علَى قُرْطُبَةَ، يَتعرَّفُونَ، في أوّلِ مدرسةٍ عالميةٍ للطبِّ، علَى آلاتِ الجِراحةِ، ويُشاهِدونَ بأعيُنِهم أساليبَ الجِراحةِ الجَديدةِ، ثُمَّ يعودُونَ إلى بلادِهِم، بعدَ شُهورٍ أو سنينَ،

حاملينَ معَهُم فنَّ وآلاتِ الجرّاحِ العربيِّ المُسلِم: «خلفِ ابنِ عبّاس»، ابنِ الزّهراءِ العبقري.

ودعَا هذا النُّبوغُ المُدهِشُ، الخَليفةَ «الحكَم» إلى إسْنادِ رئاسةِ بيمارستانِ قُرْطُبَةَ، إلى «خلَف بن عبّاس»، فقدْ كَبُرَ أُستاذُه «عيسَى» في السّنِّ، وحَسْبُه قيامُه بدورِه كطبيبٍ ووزيرٍ للخليفةِ «الحكَم». وقالَ «الحكَمُ» لِخلَف، في محْفَلِ إسْنادِ هذا المنصِبِ إليْه:

– منَ اليومِ أيُّها الطَّبيبُ الأمينُ، سَيَكونُ لقبُكَ هو «الزّهْراويّ» فأنْتَ ابنُ الزّهراءِ، وأوّلُ وليدٍ بِها، وهو لقبٌ لَنْ يَحملَهُ أحدٌ سِواك، علَى مَرِّ العُصورِ.

درّة الجبَل

كانَ المُسلمونَ قدْ أُخرِجُوا منْ ساحلِ «بُروفانس» (جنوبيّ فرَنْسا)، قبلَ عامٍ، وكانَ بناءُ الزّهراءِ قدْ تمَّ قبلَ عامٍ، بعدَ أربعينَ سنةً منَ العمَلِ المُتواصِلِ، للمُهندسينَ والبنّائينَ والفنّانين. وجاءَتِ الزّهراءُ كأجملِ ضاحيةٍ، وأكبرِ ضاحيةٍ لمدينةٍ، في

زَمانِها، وتجَسَّدَت كَدُرَّةٍ تَسْطَعُ في ضِياءِ الشَّمْسِ، وتحتَ نُجومِ اللَّيْلِ، حَوْلَ «جَبَلِ العَروسِ» (مُرتفعاتِ سيرا مورينَا) مِنْ سَفْحِه إلى قِمَّتِه. وكانَ جَبلاً أسوَدَ غَطّاهُ البُسْتانِيّونَ الأندَلُسِيُّونَ بأشجارِ اللَّوْزِ، فأحالَتْ زُهورُها البَيْضاءُ لَوْنَ الجبَلِ، إلى مَشْهَدٍ يُعْجِبُ النّاظِرينَ.

وكانتِ الزَّهْراءُ، بموقِعِها الجبليّ الفَريدِ، على بعدِ ثلاثةِ أميالٍ، في الشَّمالِ الغربيِّ لقُرطُبَةَ، ذاتَ مُستوياتٍ ثلاثةٍ مُتَدَرِّجةٍ، في كُلِّ مُسْتَوًى منْهَا حَيٌّ مِنَ الأَحْياءِ، لفِئَةٍ مِنَ السُّكّانِ، ولِكُلِّ حَيٍّ سورٌ، يَقومُ عليه الحُرّاسُ، ويُغلقونَ أبوابَهُ مع اللَّيْلِ، ويَفْتَحونَهُ مع آذانِ الفَجْرِ، ولا يَمُرُّ مِنْ هذه الأبوابِ أحَدٌ، بَيْنَ هَذَيْنِ الوَقْتَيْنِ، إلاّ بإذْنٍ مُوَقَّعٍ مِنْ كَبيرِ الحُرَّاسِ.

وكانَ الحيُّ الأدْنَى يَضُمُّ الدُّورَ والأَسْواقَ، ويتوسَّطُهُ مَسجِدُ الزَّهراءِ، والحَيُّ الأَوْسَطُ يَضُمُّ القُصورَ العَديدةَ، ويَتَوسَّطُها قَصْرُ الرَّوْضَةِ (قَصر الزّهراء)، وفيهِ يُقيمُ الخليفَةُ «الحكَم»، والحَيُّ الأعْلَى بهِ رِياضُ الزَّهْراءِ، وحَدائِقُهَا، وبَساتينُهَا، ومُتَنزهَاتُها، الملْأَى بالحَشائشِ والأَشْجارِ والشُّجَيْراتِ،

والمَماشي المُعبَّدَةِ بالحَصَى والأحْجارِ، وأحْواضِ الزُّهورِ المُتَعَدِّدَةِ الألْوانِ.

وكانتْ تَصِلُ إلى الزَّهراءِ في قَناةٍ مُدْهِشَةٍ، يَبلُغُ طولُها ثلاثينَ كيلو مترًا، تَحملُ المياهَ إلى الزَّهراءِ، مِنْ نَهرِ الوادي الكَبيرِ. وكانتِ النّواعيرُ (السَّواقي) تَرفَعُ المياهَ من مُستوى القَناةِ، إلى أحْواضٍ أعلَى، فَأعلَى، إلى أنْ تَتدَفَّقَ في بَساتينِ المُستَوى الأعْلَى، وتَنْحَدِرَ مرَّةً أُخرَى عائدةً إلى القَناةِ، وفي صُعودِها ونُزولِها يَأخُذُ سُكّانُ الزّهراءِ مِنَ الماءِ، ما يَشاءونَه في اللَّيلِ والنَّهارِ، لِمَا يَشاءُونَهُ مِنَ الأغْراضِ.

وصارَ مَسجدُ الزَّهراءِ، الَّذي فُرِشَتْ أرضُه بالرُّخامِ المُلَوَّنِ، مثلَ المسجدِ الجامعِ بقُرطُبَة، مدرسةً للعلْمِ، كَمَا هُوَ مَسجدٌ للصَّلاةِ.

القَصرُ المَسحور

ودُعِيَ «الزّهْراوِيّ» معَ أبيهِ، للقاءِ الخَليفةِ الحَكَم، في قَصْرِ الرَّوْضةِ، فَدَخَلاهُ مَعًا، بعدَ صَلاَةِ العَشاءِ، في مَسجدِ الزَّهراءِ. ورأى «الزَّهراويّ» قَصرًا باهِرًا كُسِيَتْ جُدرانُه بالرُّخامِ، وطُعِّمَتْ

نُقوشُه وزَخارِفُه بالذَّهَبِ والفِضَّةِ، وفي نَواحيهِ الفَسيحَةِ بِرَكٌ وأحْواضٌ، مَلْأَى بالمياهِ، والنّوافيرِ تدفَعُ إليها بمزيدٍ مِنَ المياهِ، لاَ تَفيضُ حولَها قَطُّ، مِن أفْواهِ تَماثيلَ لحيواناتٍ، وقَد تَرامَتْ وارتَفَعَتْ حولَها الأشجارُ المُزيَّنَةُ بالأنوارِ. ورأى «الزَّهراوِيّ» أعمدَةً مِنَ الرُّخامِ تَعلُو شاهِقَةً، تَحملُ قِبابًا في سُقوفِ القَصْرِ، أرْبعةَ آلافٍ وثلاثمائةِ عَمُودٍ، تَتدَلَّى منْهَا القَناديلُ ، وتَسْطَعُ كلُّها بأنوارٍ مُتَعَدِّدَةِ الألْوانِ، والدَّرَجاتِ.

وتَوقَّفَ «الزَّهراوِيّ» معَ أبيه، أمامَ بِركَةٍ ملْأَى بالزِّئْبَقِ، صارَ يَتَغَنَّى بِهَا الشُّعَرَاءُ في الأندلُسِ بأسرِها، وأقبلَ الخَليفةُ ورَآهُما مَبهورينَ بمَرأى بُحَيْرَةِ الزِّئبقِ، فزادَهما انبهارًا، حينَ أشارَ إِلَى أحدِ رِجالِ القَصْرِ، فدَفَعَ بطَرَفِ عَصاهُ في البِركَةِ عابثًا، فتَأرجحَ سَطْحُ بِركَةِ الزِّئبَقِ، واهتزَّ كَمَا المَوْجُ، وسجُفُ (أستار) الحَريرِ، بضياءات خاطفة، كخُيوطِ البَرْقِ، تَخطَفُ الأبْصارَ، وانتَفَضَ «الزّهْراوِيّ» وَجِلاً (خائفًا)، ولَفتَ بَصرَه بَعيدًا عَنِ الوَميضِ، وكأنَّهُ قَدْ حَدَّقَ لَحظةً خاطفةً في عَيْنِ الشَّمْسِ. واقْتَربَ مِنهُما الخَليفةُ ضاحِكًا، وهُوَ يَقولُ لعبّاسٍ:

- لَمْ تَخطُرْ هذه الفِكرةُ لَكَ عَلى بالٍ يا عبّاس. استَعَرْنَا فِكرَةَ هذِهِ البِركَةِ مِنْ مِصْرَ، مِنْ بُحَيْرَةِ الزِّئبقِ الَّتي كانَتْ لخمارَوَيْه، في سالِفِ الأيّامِ.

كُن على حذَر

ودَعَاهُما الخَليفةُ فَجلَسا مَعَهُ. وقالَ الخَليفةُ للزَّهراوِيّ:

- ودَّعنَا عيسَى يا زَهْراوِيّ، وصَعِدَتْ روحُه إلى بارئها (خالِقِها). وقَدْ جعلتُكَ في مَكانِه، طَبيبًا للقصْرِ، ووَزيرًا مع

وزَرائي، فَنظِّمْ وَقتَكَ بينَ عَمَلِكَ في البيمارستانِ، وبينَ عَمَلِكَ هُنَا في هَذَا القَصْرِ، يومٌ هُنا، وأيّامٌ هُناكَ، ومَن كانَ بحاجةٍ عاجلةٍ منّا سعَى إليكَ، حيثُ أنْتَ.

ثُمَّ ضَحِكَ «الحَكَمُ» وقالَ للزّهْراوِيّ:

- حدِّثْنا الآنَ يا أبا القاسِمِ، عَنْ أحلامِكَ الأُخْرَى للطِّبِّ والأطِبّاءِ، فَالعقلُ المُبتكِرُ لا يَتوَقَّفُ عَنِ الابتِكارِ والعَطَاءِ.

فقالَ «الزَّهْراوِيّ»:

- أُفكِّرُ يا مَولايَ، في ثَلاثةِ أمورٍ: أنْ نُعيدَ تدريبَ القابلاتِ عَلى فَنِّ التَّوليدِ، وتَعليمهنَّ ما يَلْزَمُهُنَّ مِنَ العِلْمِ، ونُعَلِّمُهُنَّ جراحاتِ التَّوليدِ، فَقَدْ لا يُسعِفُهُنَّ طَبيبٌ بالحُضورِ إليهنَّ، في القُرَى والنُّجوعِ.

فَقالَ «الحَكَمُ»:

- هَذَا أمرٌ حسَنٌ، فَنَفِّذْهُ. والأمرُ الثّاني:

فقالَ «الزَّهْراوِيّ»:

إعْدادُ مواسيَاتٍ (مُمَرِّضات) يا مَولاي، يُوجَدْنَ معَ الأطبّاءِ، في البيمارستانات، مُدَرّباتٍ علَى خِدْمَةِ المَرضَى، يُعطِينَ لهُمْ جرَعاتِ الدَّواءِ، ويُقدِّمْنَ وجْباتِ الغَذاءِ، في المَواعيدِ المحدّدَةِ، ويَستنجِدْنَ لهم بِعَوْنِ الأطبّاءِ، حينَ يَتَضاعَفُ معَهم المرضُ في ظَلامِ اللّيْلِ، لسببٍ مِنَ الأسْبابِ.

فقالَ لهُ «الحكَمُ»:

– افعَلْ ذَلِكَ أيضًا، وكُنْ علَى حذَرٍ، فسوْفَ يُقاوِمُك الفُقَهاءُ، وقَد لا أكُونُ حَيّا، للوُقوفِ بِجانِبِكَ، والدِّفاعِ عَنْكَ. والأمرُ الثّالِثُ؟

فقالَ «الزَّهراوِيّ»:

– أنْ أضعَ كتابًا، مَوسوعةً في الطِّبِّ، عَنِ الأمْراضِ وعِلاجِها، والجِراحةِ وأساليبِها، وآلاتِ الجِراحةِ وأشكالِها.

فقالَ «الحكَمُ»:

– حَسَنًا تفعلُ، ولاَ تُؤجِّلْ ذَلِكَ لقادمِ السِّنين، واجعَلْ مِنْ مَرِّ الأيَّامِ وَسيلةً للإضافةِ والتّعديلِ والتّحسينِ، في كِتابِكَ هَذا. أيّ عُنْوانٍ سَتَضَعُه لَهُ؟

فَقالَ «الزّهراوِيّ»:

– التَّصريفُ.. لمنْ عجَزَ عَنِ التّأليفِ.

فقالَ «الحكَمُ»:

– اقرِنْ فيهِ إذَنْ بينَ العِلْمِ والعَمَلِ. افعلْ في تَأليفِكَ، ما فَعَلَهُ أبُوكَ في رَسمِهِ لتَصميماتِ الزّخارِفِ، وما فعلتَه أنتَ حينَ رسمْتَ أدواتِ الجِراحةِ وآلاتِها، فلا شَيْءَ يوضّحُ معارِفَ العِلْمِ، قدرَ الرُّسومِ، وهِيَ أمرٌ بَديعٌ، في كِتابٍ للطِّبِّ، ولَمْ يَسْبَقْكَ إليْهِ أحَدٌ.

وحينَ انتَصَفَ اللّيْلُ نَهَضَ «الزّهراوِيّ» وأباهُ، وودّعَهُما «الحكَمُ» عِنْدَ بابِ القَصْرِ، وتَرَكَ الضّيْفانِ وَراءَهُما، في القَصْرِ، أربعُمائَةِ غُرفةٍ، يَشغلُها جَميعًا سُكّانُ القَصْرِ، وضُيُوفُ الخِلافَةِ.

نِساءُ الأندلُسِ

وأقدَمَ «الزّهراوِيّ» في البيمارسْتانِ علَى تَدريبِ القابِلاتِ فَصِرْنَ مُولِّداتٍ مُؤَهّلاتٍ، يعرِفْنَ الضّروريَّ مِنَ التّشريحِ، وطُرُقَ التّوليدِ، وإجراءَ الجِراحاتِ العاجِلَةِ، لإنقاذِ الأجِنّةِ والأُمّهاتِ.

وأقدَمَ «الزَّهراوِيّ» على إيجادِ المواسياتِ (الممرّضات) لأوّلِ مرّةٍ في البيمارستاناتِ الإسلاميّةِ، وسارعَتْ للعملِ في المُواساةِ (التّمريض) زَوجاتُ وبناتُ الأطبّاءِ، قَبْلَ سِواهُنّ مِنَ الزّوجاتِ والفتَياتِ، وأيَّدَتْ نِساءُ الأندلُسِ بأسرِها دعوةَ «الزَّهراوِيّ» الإنسانيّةَ، وأوقَفْنَ أيَّ احتجاجٍ للرّجالِ. وكانَ أهلُ الأندلُسِ أكثَرَ جُرأةً وحُرِّيّةً في زَمانِهِم مِنْ سائرِ الأقْطارِ.

الحصادُ العَظيمُ

وفيما وراءَ حدودِ البلادِ الإسلاميّةِ، خاصّةً في أوروبَا، في بلادِ الغالِ (فَرَنْسا) والرّومانِ، والجرمَانِ (ألمانيا) والبَلْقانِ (شَرق أوربَا) تردَّدَتْ دُروسُ «الزَّهراوِيّ» للأطبّاء مِنْ كُلِّ الأجناسِ: العلْمَ مُشاعٌ، وحَقٌّ لِكُلِّ إنسانٍ، ولِكُلِّ الأجْناسِ، في كُلِّ الأزْمانِ. وَمَنْ حَجَبَ عِلْمًا فَهُوَ في النّارِ. ومَنْ احْتَكَرَ عِلْمًا أو سِرًّا مِنْ أَسرارِ العِلْمِ فهُوَ في النّارِ.

وراحَ أطبّاءُ تِلْكَ البُلْدانِ يُمارِسونَ سرًّا حينًا، وعلانيةً حينًا آخَر، إجراءَ الجراحاتِ، فَقَد كانَ البَابَوَاتُ (آباءُ الكَنيسةِ)، يُحرِّمونَ، واحدًا بعدَ آخَرَ، إجراءَ الجِراحاتِ، لأنَّها، فيما زَعَموهُ،

اعتداءٌ عَلى الجسَدِ الَّذي خَلَقَه اللّه. ويُمارِسونَ سرًّا في كُلِّ الأحْوالِ، تعلُّمَ التَّشريحِ، عَلَى أجْسامِ الرّاحلينَ، والحَيَوانَاتِ القَريبةِ في تَشريحِها مِنَ الإنسانِ، مثلَما يفعَلُ أطبّاءُ المُسلمينَ، وهو أمرٌ آخر، كانَ البابَواتُ يُحرّمونَه كلَّ التّحريمِ ويَستنزِلُونَ اللّعْناتِ على مَنْ يَقُومُ بِه، ويَجرُؤُ عَلَيْه.

وكانَ المَرضَى في تِلْكَ البِلادِ الأوربيّةِ، يَتوجَّهونَ إلى كَنائسَ رُسِمَتْ على زُجاجِ نَوافذِها، صورةُ «الزَّهراوِيّ»، رائدِ عِلْمِ الجِراحةِ، ويَبْتَهِلونَ إلى رَبِّ «الزَّهراوِيّ» ليأخُذَ بأيديهِم، ويَمُنَّ عليهِم بالشِّفاءِ، فيما سيُجريهِ لهُمْ الأطبّاءُ، تلامِذَةُ «الزَّهراوِيّ» مِنْ جِراحاتٍ.

لا يَبقَى سِوَى العلمُ

وكان «الزَّهراوِيّ» قَد بَلَغَ منَ العمْرِ أربعينَ سنةً، حينَ ودَّعَ «الحَكَمُ» دُنْيَا النّاسِ، ولَقِيَ وجهَ ربِّه، فلمْ يَهنأ بالإقامةِ في قَصرِ الرّوْضةِ، سوَى عامٍ واحدٍ. وآلَتْ الخلافةُ مِنْ بَعدِه إلى ابنه «هشام الثّاني»، وصارَ «المَنصورُ مُحمّدُ بنُ عامرٍ» حاجبًا لهُ، ومُستَبِدًّا، كملك مِنَ الباطنِ، بِأمُورِ الأنْدَلُسِ، دُونَ الخَليفةِ الصّغيرِ السِّنِّ، فَعادَ بسُلطةِ الحُكمِ والخِلافةِ إلى قصرِ الخلافةِ

الأوّلِ في قُرْطُبَة، وأهمَلَ شأْنَ «الزّهراءِ». وراحَ يُنْشِئُ لِنفسِهِ ضاحيةً أُخْرَى أَسْماهَا «الزّاهِرَة»، أتمَّ بِناءَها في أربعِ سَنَواتٍ، ونَقَل إِلَيْها ديوانَ الحُكْمِ، وأنْشَأَ بِها ديوانًا (مَجلسًا) للشُّعَراءِ والأُدَباءِ، ونَدْوَةً للعُلماءِ، واعْتَمَدَ عَلى رِجالٍ وعُلماءِ آخرينَ، غيرَ رجالِ «الحكَمِ» وعُلَمائِه، فاستَراحَ «الزَّهراوِيّ» عَن دَورِه كَطبيبٍ للقَصْرِ، ووزيرٍ للخليفةِ، وتَفرَّغَ إلى نِهايَةِ عمرِهِ لإنجازِ كتابِه: «التّصريفُ لِمَنْ عَجزَ عَنِ التّأليف»، وأبقاهُ «المَنصورُ» في مَنصبِهِ كرئيسٍ للبيمارستانِ، لكفاءَتِه، وحُسْنِ سُمْعَتِه، وشُهْرَتِه الواسعةِ في قارّاتِ العالَمِ القَديمِ الثّلاثِ.

وكانَ المَنصورُ، عَلى استِبدادِه بالحُكْمِ، حاكمًا عادِلاً، ومُحارِبًا شُجاعًا، يَقْمَعُ كُلَّ الثّوراتِ، ويرُدُّ عَنِ الأندلُسِ كلَّ الغاراتِ، وبلغَتْ حُروبُه سبعَةً وعشرينَ حَرْبًا، في سبعٍ وعشرينَ سنةً، ولَقِيَ «المَنْصورُ» أجلَه بمدينةِ «سالِم» وهو عائدٌ من الغَزْوِ في الشّمالِ، وكانَ «الزَّهراوِيّ» قَد بَلَغَ مِنَ العمرِ ستّا وستّينَ سنةً.

واضْطَرَبَتْ أُمورُ الحُكْمِ والخِلافةِ مِن بَعدِ «المَنصورِ»، وتَصارَعَ عليهِما أبناؤُه، وبَنُو أُمَيّةَ، إلى أنْ انفرَدَ بِها «المهدِيُّ محمّدُ بنُ هشامٍ الثّاني» بعْدَ سبْعِ سَنَواتٍ، فَخَرَّبَ

ضاحِيَتَيّ «الزّاهِرة» و«الزّهراء» معًا، ورَثاهُما الشُّعَراءُ مِثْلَما يَرْثون المَمالِكَ والدُّوَلَ. فَهَمَسَ «الزَّهراوِيّ» لنفسِهِ: «لاَ يَبْقَى سِوَى العِلْم».

ذِرْوَةُ المجدِ

عَاشَ «الزَّهراوِيّ» في القَرْنِ الرّابِعِ الهِجْرِيِّ، العاشِرِ الميلادِيّ، وفي هذا القرنِ بَلَغَ سُلطانُ المُسلمينَ السّياسيّ والحَرْبيّ ذِرْوَةَ مَدِه في الأندلُسِ، وبلادِ المغربِ التّابعةِ للأندلُسِ، وبلغَتْ مدينةُ قُرطُبَةَ أعْلى دراتِ الرُّقيّ في العِمارةِ والثّقافة، وازدانَ بَلاطُ قرطبةَ بصفوةٍ منَ العُلماءِ. وكانتِ الفتوحاتُ الإسلاميّةُ تكتَسِحُ أفريقيا الشّرقيّةَ بأسرِها، عَلى حينِ كانتْ تُخومُ (أطرافُ) البلادِ الإسلاميّةِ تَنْكَمِشُ وتتراجَعُ في: كريتِ والشّام، وما وراءَ القُوقاز، وما وَراءَ النّهْرِ (شرقيّ بحرِ قزوين) فقد تسلَّلَ الضّعفُ إلى الدّولةِ العبّاسيّةِ تحتَ سيطرةِ البويهيّينَ الشّيعيّةَ في بغدادَ، ومُناهضةَ الخِلافةِ الفاطميّةِ الشّيعيّةِ في مصر، والقَرامِطةِ الشّيعةِ في شِبْهِ الجزيرةِ العربيّةِ، للْخِلافةِ العبّاسيّةِ.

قَرن الصّفوة

وفي هذا القرنِ، ظلَّتْ بغدادُ، مَعَ ذلكَ الضّعفِ، كعبةً للثّقافةِ في عهدِ البُوَيهيّينَ، الّذينَ شَمِلُوا برعايَتِهم البُحوثَ العلْميّةَ في الفَلَكِ والرّياضةِ خاصّةً، وزاحَمَهُم في رِعايةِ الفكرِ الحمدانيّونَ في حَلَب والمَوْصِلِ، والسّامانيّونَ فيما وراءَ النّهْرِ، والأمويُّونَ في قُرطُبةَ والأندلُسِ.

ولَمَعَ مِن أئمّةِ الفكرِ في هذا القرنِ: الجُغرافيّ المُؤرّخُ «المَسعوديّ» كاتبُ الحَوليّاتِ، والمُفسّرُ «الطّبريّ»، والشّاعرُ «المُتنبيّ» وجامعُ الدّواوينِ الشّعريّةِ «الأصفهانيّ»، وصاحبُ الفهْرَسْتِ «النّديمُ»، والفلكيّ الرّياضيُّ «أبُو الوَفا»، والمُتكلّمُ «الأشعريّ» والطّبيبُ الشّهيرُ «عليُّ بنُ العبَّاس»، وأبُو الجِراحةِ في كلِّ العُصورِ «الزّهراويّ».

وكانَ هذا القرنُ قرْنًا عَجيبًا في الثّقافةِ، بزَّ (تفوّقَ) فيه العربُ الفُرسَ في تَفوُّقِهِم العقْليّ، فكَتَبُوا بُحوثًا في الأنْسابِ والآثارِ وفقْهِ اللُّغةِ، وعَمِلُوا جَداوِلَ فَلَكيّةً، وألَّفُوا كُتُبًا كَثيرةً في وَصْفِ البُلْدانِ، وأصدَرَتْ جماعاتُ «إخوانِ الصَّفا» رسائلَ في العُلومِ،

تنطلقُ في فِكرِها مِن مَذهَبِ الأفلاطونيّةِ الفلسَفيّةِ الجَديدةِ، وكانَتِ الأعْدادُ الهنديّةُ تَنْتَشِرُ في العالَمِ الإسلاميّ شَرقًا وغَرْبًا، و«ألفُ ليْلةٍ ولَيْلةٍ» تُصنّفُ، في صُورَتِها الأُولَى، بالعربيّةِ.

وجاءَ الحَصادُ الثّقافيُّ لهذا القرنِ ضخْمًا في مَجموعِه، عربيُّ اللُّغَةِ في مُعظَمِه، وكانَ حصادًا يفوقُ في جهدِه، أيَّ جهدٍ وعطاءٍ ثقافيٍّ للدُّوَلِ غيرِ الإسلاميّةِ، في قارّاتِ العالَمِ القديمِ الثّلاثِ.

دُستورُ الجِراحةِ

حينَ بَلَغَ «الزّهراويُّ» مِنَ العمرِ ستّا وسَبعينَ سنةً، عادَ «أبُو بكرٍ الكِرْمانيّ» مِنْ مدينةِ «حرّان» حاملاً معَه، من المَشرقِ، رَسائلَ «إخوانِ الصَّفا»، ومعرفةً واسعةً بالرّياضيّاتِ، وتَقريرًا مُستفيضًا عَن «البيمارستان» الذي أنشأَهُ «عَضُدُ الدّولة» في بغداد، وكانَ «الزّهراويُّ» قَد بَعثَ به، قبلَ ستِّ سنوات، إلى «حَرّان» ليعرفَ للأندلُسِ، ما لَم يَكُنْ مَعروفًا مِنَ الكُتُبِ، وتَطوُّراتِ العُلومِ.

وجلَسَ «الزّهراويُّ» معَ ابنِه، ومعَ «الكِرْمانيّ» وقدّمَ لَهُما خبْرةَ حياتِه كُلِّها، العِلميّةِ، في كتابِه «التّصريف»، وكانَ كتابًا طبّيًا

مَوسوعيًّا شامِلاً في ثَلاثينَ جزْءًا، أوّلُها في كلِّيّاتِ الطِّبِّ النّظريّةِ، وثانيها وثالثُها عَن الأمراضِ وأسْبابِها، منَ الرّأسِ إلى القَدَمِ، وآخرهَا عَنِ الجراحةِ عامّةً، وبينَ هَذهِ وتلْكَ اثنانِ وعِشْرينَ جزْءًا، خاصّة بالأدويةِ المُفردةِ والمُركّبةِ، ومكاييلَها، ومَوازينِها.

وكانَ الجُزءُ الثّلاثونَ يَقعُ في ثلاثةِ أبْواب، ينْدرِجُ تحتَها مائةٌ وثمانيةٌ وثَمانونَ فَصلاً، عَنِ الجِراحاتِ، وعمليّاتِ الجِراحة، وطُرقِها، وعَن طُرُقِ ومواضعِ الجَبْرِ، والخلْعِ، والكَسْرِ، والكيِّ، وكانَ جزءًا مُزَوَّدًا بالرّسومِ لآلاتِ الجِراحةِ، وأدواتِها.

اللّيلةُ الأخيرةُ

وكانَ «الزّهراويُّ» قَد بَلَغَ منَ العمرِ سَبعًا وسَبعينَ سنةً، وقَد أرْهَقَهُ ما بَذلَهُ مِنْ جُهْدٍ، في سَنواتِ عمرِه، فاعتكَفَ في دارِه بقُرطبةَ، يَفِدُ الأطبّاءُ لزيارَته، واستشارَته، والأصدقاءُ لعيادَته في أمراضِ الشّيخوخةِ، والفُقَراءُ طلبًا لعلاجِهِ لأمراضِهم، والطُّلّابُ النّاشئونَ في البيمارستانِ الذي صارَ عَلى يَدِ «الزّهراويّ» دارًا للعِلاجِ، ومدرسةً لتعلُّمِ الجراحةِ

خاصّةً، يَطلُبونَ عِلْمَهُ، وينصِتونَ إلى نَصائِحِه، وقالَ لهُم فيمَا قالَه، ذاتَ ليلةٍ:

- راجعُوا التّشريحَ قَبلَ كلِّ جراحة، فالجَهلُ بالتّشريحِ يؤدّي إلى نتائجَ وخيمة. وعليكُم أنْ تأخُذوا بالحَذَرِ، قبلَ كُلِّ جراحة، فَلا يمارِسْ أحدُكُم الجراحةَ، وهو يشعُرُ بالغُرور، أو يحسُّ بالخَوْف، أو الغضَب، وابتَعدُوا عَنِ الجراحاتِ الخَطِرَة، العَسِرَةِ البُرْءِ (الشّفاء)، فمثلُ هذه الجراحاتُ لَمْ تُعرَفْ بَعْدُ. واحْرِصُوا، حينَ تَصيرونَ أطبّاءَ، عَلى حُضورِ كلِّ الجِراحاتِ، وأخْذِ بعضِكُم

لمَشُورةِ البَعْضِ، ومُعاوَنةِ بعضِكُمْ لبعضٍ، ولاَ تَبخَلُوا بطِبِّكُمْ على صَديقٍ أو عَدُوٍّ..

وفي تِلْكَ اللَّيلةِ، أسلمَ «الزَّهراويّ» الرّوحَ، وكانَ وَحيدًا في فِراشِه، عندَ أذانِ الفَجْرِ، في العامِ الهجرِيّ الرّابعِ بعدَ الأربعمائةِ، الميلاديّ الثّالثِ عشرَ بعْدَ الألْفِ.

وبكتْهُ الأندلُس، وسَرَتْ أخبارُ وَفاته إلى عَواصمِ الفرِنْجَةِ، فَحَزِنَ أهلُهَا عليْه، حُزْنَهُم على عَالمٍ مِن عُلَمائِهم.

* * *

وفي القُرونِ التِّسعَةِ التّاليَةِ، شاعَتْ معارفُ الجراحَةِ الزَّهراويّة، وأساليبِها، وآلاتِها وأدَواتِها في أرْجاءِ أوربَا، وصارَتْ طَرَائِقُ «الزَّهراوِيّ» الجراحيّةُ مَعروفةً عندَ كُلِّ أطبّاءِ أوربَا باسْمِ: «الزَّهراوِيَّةِ في الجِراحَةِ» في الجامعاتِ، والمُستَشفيات.

وكَتَبَ الأوربيُّونَ اسمَ «الزَّهراوِيّ»، ونَطَقُوه بطُرقٍ شَتّى، فهو: البلكاسس، و: أبو الكاسس، و: السروي، و: أكاراني، و: زاهرفيوس، و: الكارافي، و.. الزّهراويّ.

وبلغَ مِن افتِتَانِ أطبّاءِ الفرنْجَةِ بابتكاراتِ «الزّهراوِيّ» الجراحيّة، أنَّ بَعضَهُم نَسبَهَا إلى نَفسِه، مثلَ وضْعِ «والشَر» في الوِلاداتِ العَسِرة.

وانتَقلَتْ نُسَخُ أجزاءِ كتابِ «التّصريف»، في أرجاءِ العالَمِ الإسْلاميّ، في زَمانِه، وتُرْجِمَتْ إلى اللاّتينيّةِ في القرنِ الثّاني عَشَرَ الميلاديّ، تُرجِمَتْ كلُّها حينًا، وبَعضُها حينًا آخرَ، منذُ سَقَطَتْ مدينة «طُلَيْطِلَة» في يَدِ الأسْبانِ.

وتوالَتْ تَرْجَماتُ «التَّصْريفِ» إلى القرنِ الثّامنِ عشرَ الميلاديّ، منَ العربيّةِ إلى الأنجليزيَّةِ، والفرَنسيّةِ، والألمانيّةِ، والعبريّةِ، والتُّركيّة. ورَغْمَ كلِّ هذه التّرجَماتِ لكتابِ «الزَّهراوِيّ»، وسواهُ منَ عُلماءِ الإسلامِ، كانَ علماءُ الغرْبِ يقولُونَ: مَنْ لَمْ يعرفْ العربيَّةَ لمْ يَعرِفْ منَ العلْمِ شَيْئًا».

وشاعَتْ نُسَخُ كتابِ «التّصريفِ» العربيَّةِ، في مَكْتَبات: جُوتَه، باريس، وبودلْيانَا، ومونبلييه، وهانتنكتُون، ومكتبة مدينةِ حيدَر آبادَ الدّكّن، الّتي طُبِعَ فيها القِسمُ الجراحيّ بالعربيّةِ، في العقْدِ الأوّلِ منَ القرْنِ العشْرينَ، ثمَّ طُبِعَ في باريس طبعةً أنيقةً، في العقدِ السّابعِ منَ القرْنِ العشْرينَ، وكانَتْ أوّلُ طبعةٍ لجزءِ الجراحةِ، بالعربيّةِ واللاّتينيّةِ معًا، في «أكسفورد» في مجلّدَيْنِ، في العقدِ الثّامنِ، منَ القرنِ الميلاديِّ الثّامنِ عشَر.

وكَثرونَ مِنْ أطبّاءِ العالَمِ، استَفادُوا، أَو اقتَبَسُوا، مَعارِفَ علميَّة مِنْ معارِفِ «الزَّهراوِيّ»، عَن التّغذيَةِ، والسُّمومِ، والجِراحاتِ، وبينَهُم كانَ: «ابنُ العَوّام»، و«شُولْياك» جرّاحُ فرَنْسا الكَبيرِ، في القَرنِ الميلادِيِّ الرّابعِ عشَرَ، والَّذي أَرْبَتْ (زادَتْ) اقتِباساتُه من «الزَّهراوِيّ» علَى مائتيْ مرّةٍ، والَّذي ألْحَقَ النُّسْخَةَ اللاّتينيّةَ لجزءِ الجِراحةِ، بأهمِّ مُؤلّفاتِه في الطِّبِّ الجراحيِّ. وبينَهُم كانَ الأطبّاءُ: فرارِي، وجَراديلْس، وَ«اردُوزيرِيس» الَّذي أخذَ نصْفَ مَعلوماتِه عَن السُّمومِ، مِن كتابِ «التَّصريفِ».

* * *

وحينَ يأتي العامُ الثّالثُ عشرَ، مِنَ القرنِ الحادي والعِشرينَ، سيكونُ ذَلكَ العامُ، هو العامُ الألْفيُّ لوفاةِ «الزَّهراوِيّ». وحينَ يأتي العامُ السّادِسُ والثّلاثينَ، مِنَ القَرْنِ الحادي والعشْرينَ، سَيَكونُ ذَلكَ العامُ، هو العامُ المائةُ بعدَ الألْفِ، لذكْرَى ميلادِ «الزَّهراوِيّ». ولعلَّ العالَمَ العربيَّ والإسلاميَّ أنْ يَحْتَفِلَ بهذهِ الذّكرَى، لطبيبٍ عالمٍ، نَسِيَ العربُ والمُسلمونَ علْمَهُ وكتابَه وذِكْراهُ، وأحْيَا الغَربيُّونَ دائمًا هذهِ الذّكْرَى فهُوَ: أبُو الجِراحَةِ، في كلِّ العُصورِ.

19

الزهراوي

الزهراوى أبو الجراحة في كل العصور. عاش في القرن العاشر الميلادى. ومارس الجراحة بيديه بدلا من الحلاقين. وأعاد تأهيل القابلات. وابتدع نظام الممرضات. وابتكر آلات جراحية من حديد لايصدأ بدلا من الذهب والفضة. واكتشف أساليب جديدة للجراحات. الظاهرة والعميقة. وعلم أسرار الجراحة لأطباء أوروبا في زمانه وألف موسوعة طبية مزودة بالرسوم لأول مرة. إنها قصة تثير الفخار. يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة:

1- ابن النفيس	13- ابن ماجد	25- ابن الرزاز
2- ابن الهيثم	14- القزويني	26- تقي الدين
3- البيروني	15- ابن يونس	27- الرازي
4- جابر بن حيان	16- الخازن	28- الكندي
5- ابن البيطار	17- الجاحظ	29- الخليل
6- ابن بطوطة	18- ابن خلدون	30- ابن حمزة
7- ابن سينا	19- الزهراوي	31- الزرنوجي
8- الفارابي	20- الأنطاكي	32- يوحنا بن ماسوية
9- الخوارزمي	21- ابن العوام	33- ياقوت الحموي
10- الإدريسي	22- الطوسي	34- ثابت بن قرة
11- الدميري	23- الكاشي	35- ابن ملكا
12- ابن رشد	24- الوزان	36- ابن الشاطر

© Editions Anep
ISBN: 978-9947-21-336-0
Dépôt légal: 1531-2007